

صحابي لا يثبت على الخيل!

الحمد لله الذي نور القلوب بالإيمان، وطهر الأرواح بالتعب، وجعله صلةً بين العبد وربّه، وراحةً للمكلوم، وطمأنينةً للخائف، وبلسمًا للمتعب، نحمده سبحانه على ما أولى من نعم، ونشهد أن لا إله إلا الله، شهادةً تُثبت القدم يوم الزلل، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، خيرٌ من ركع وسجد، أما بعد...

فضائل الخيل.

كانت الخيل شهامةً عربية، وشجاعةً فطرية، وهي من تركة نبي الله سليمان بن داود، والذي كان يحبها، ويمسح سيقانها وأعناقها، ويحب أن تعرض عليه، قال الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْإِجَادُ﴾ ص: ٣١، والخيل الصافنات: التي تقف على ثلاثة قوائم، وترفع الرابعة على طرف حافرها، وهي علامة على الرشاقة والجاهزية، وقد كان الناس يتحدثون في وقت النبي ﷺ أن خيل

سليمان كانت لها أجنحة، فقد دخل النبي ﷺ على عائشة فرأها عندها لُعبًا، فقال: "ما هذا يا عائشة؟" قالت: بناتي، ورأى بينهما فرسًا له جناحان من رقاع، فقال: "ما هذا الذي أرى وسطهن؟" قالت: فرس، قال: "وما هذا الذي عليه؟"، قالت: جناحان، قال: "فرس له جناحان؟" قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فضحك رسول الله ﷺ حتى رأيت نواجذه^(١).

يوسفُ هذه الأمة!

وكان بعض العرب لا يستطيع امتطاء الخيل، ومن هؤلاء الذين نقل التاريخ أنهم لا يستطيعون الثبات على الخيل: الصحابيُّ الجليل جريزُ بنُ عبدالله البجلي، من بجيلة-جنوب الطائف- وكان جريزُ سيدَ قومِه -وقومُه

(١) رواه أبو داود، قال ابن رسلان: "وسبب تبسمه، والله أعلم، ملاطفة عائشة دون أن يقال: إن إقراره دليل وقوعه. لا سيما مع استبشاره بالضحك، إلا أن يبين ذلك". شرحه على أبي داود (١٣/١٩).

هم المعروفون اليوم بقبيلة بني مالك- وقد كان جريرٌ جميلاً، فائق الحسن، حتى قال عنه عمر-رضي الله عنه: "جرير يوسف هذه الأمة" ^(١).

دخل جرير مرة من باب المسجد والنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يخطب، فلما شرع في الدخول رماه الناس بأعينهم، وأخذوا يحدقون بأبصارهم، فسأل جرير: ما بال الناس ينظرون إليّ؟ ف قيل له: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "يدخل من هذا الباب رجل من خير ذي يَمَن، على وجهه مسحة ملك" ^(٢). فكان الداخل هو جرير، أي: من جماله كأنه ملك، كما قالت النسوة عن يوسف: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ يوسف: ٣١.

جرير لا يثبت على الخيل.

وكان جرير-رضي الله عنه- ضخم الجثة، طويل القامة، حتى قال عنه أحد أبنائه: "كانت نَعْلُ (والدي)

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني.

جرير بن عبدالله طولها ذراع" (١).

ولهذا كان جرير لا يثبت على الخيل إذا ركبه، ولا يستقر بدنه عليه لطوله وجسامته، بل يسقط منه، أو يخاف السقوط وهو عليه.

جرير في مهمة عظيمة.

في يوم من أيام الدعوة قال النبي ﷺ مرة لجرير: "ألا تُريحني من ذي الخلصة" (٢).

وذو الخلصة هي كعبة جاهلية، تقع جنوب الطائف يقصدها العرب، ومنهم قبيلة بجيلة والتي يعود إليها جرير بن عبدالله البجلي، فقد كانوا يطوفون حولها، ويستقسمون عندها بالأزلام، فأرسل النبي ﷺ جريراً، لأنه كان سيداً مطاعاً في قومه، كريم المنزلة بينهم، فلو بعث غيره لاحتاج إلى حماية أو تأييد قبلي، أما جرير فكان يتحرك بقوة الانتماء والطاعة، فهو من القبيلة نفسها التي تعظم

(١) رواه الإمام أحمد بسند لا بأس به كما قال محققو المسند.

(٢) رواه البخاري.

هذا الصنم، فذهابه لهدم ذي الخلصة من حكمة النبي ﷺ فهو أبلغ أثراً، وأقوى حجة، وأسرع قبولاً عند قومه.

جرير يحظى بدعوة.

فلما كلفه النبي ﷺ بهذه المهمة قال جرير: "يا رسول الله. إني لا أثبت على الخيل"، وقوله هذا لم يكن اعتذار المتخلف ولا اعتذار المتردد، وإنما هو إقرار صادق بنقص في أداة من أدوات القتال مع تمام الطاعة والانقياد، فوضع النبي ﷺ يده المباركة على صدر جرير، قال جرير: "فضرب ﷺ يده في صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري وقال: اللهم ثبته، واجعله هادياً مهدياً".

الصدر محل العزم، والجرأة، والطمأنينة، ولعلها سبب اختيار النبي ﷺ بأن يضع يده عليها، ودعا له دعاءً جمع بين التثبيت في الموقف والهداية في المسير "اللهم ثبته، واجعله هادياً مهدياً"، فكان الدعاء موجّهاً إلى

القلب قبل الجسد، وإلى العزم قبل الحركة. فصار موضع الضعف باباً للتمكين، وتحول العجز الجزئي إلى سببٍ للتوفيق الكامل، فمضى جرير لهدم ذي الخلصة حتى كسرها وأحرقها، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ يخبره، فقال رسول جرير: "والذي بعثك بالحق، ما جئتُك حتى تركتها كأنها جمل أجوف، أو أجرب"، عاد بالخبر الذي أبان عن زوال هيبة الشرك وانكشاف خوائه، حين وُصفت بأنها صارت كالجمل الأجوف، عظيم الشكل فارغ الحقيقة. وفي ذلك كَلِّه درس بليغ في أن الصدق يَجْبُرُ النقص، وأن بركة الدعاء النبوي تغيّر المآلات، وأن القيادة في الإسلام تقوم على الثقة والتزكية بالدعاء لا على الكمال المجرد فحسب.

ماذا حصل لذي الخلصة بعد هدمها؟

وقد أخبر النبي ﷺ أن ذا الخلصة سيُعبد بعد هدمه فقال: "لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليّاتُ نساء

دوس على ذي الخَلَصَة" ^(١)، فلا يزال موضعُ ذي الخَلَصَة معروفاً إلى اليوم في بلاد زهران جنوب الطائف، وقد وقع ما أخبر به النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بعد وفاته؛ إذ عادت بعض قبائل تلك النواحي إلى تعظيم ذي الخَلَصَة وعبادته حين عاد الجهل.

أميرٌ بعد جرير يهدم ذي الخَلَصَة!

حتى جدّد الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- الدعوة إلى التوحيد، فهُدِّمت معالم الشرك بأمر إمامٍ من آل سعود قلّما يذكره الناس، مع فضله، وعلمه، وجهاده، إذ توسعت الدولة السعودية في وقته حتى دخلت العراق شمالاً، وعمان جنوباً، إنه الجد الخامس للملك عبدالعزيز: الإمام المجاهد عبد العزيز بن محمد بن سعود -رحمه الله- المتوفى سنة ألفٍ ومائتين وثمانٍ عشرة للهجرة، الموافق لسنة ألفٍ وثمانمئةٍ وثلاثٍ للميلاد، ثم لما عاد الجهال إلى تعظيمها بعد زوال الحكم السعودي

(١) رواه البخاري ومسلم.

عن الحجاز، أزالها الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود -رحمه الله- نهائيًا حين استولى على الحجاز مجددًا، فهدمت وأزيل أثرها، والله الحمد والمنة.

امتداد أثر الدعوة، وأثر عظيم الهداية.

بعد وفاة النبي ﷺ تجلّت بركة دعائه لجريـر بن عبد الله البجلي تجليًا واضحًا في مسيرته العملية والقيادية، فلم تكن الهداية التي دعا له بها هداية لحظة عابرة يوم قال: "اللهم ثبته، واجعله هاديًا مهديًا" بل هداية ممتدة ظهرت آثارها في الثبات على الدين، وحسن الاختيار، والقيام بأعباء الأمة في أدق مراحلها. فقد كان جريـر بعد وفاة النبي ﷺ من أعمدة الاستقرار في زمن الفتن، فثبت الله به قومه، وحفظ به جماعته من الارتداد، وفي خلافة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- اتسع أثر جريـر، فأرسله في المهام الجسام، وولاه قيادة الجيوش، فكان قائدًا في فتوح العراق وفارس، وشهد معارك كبرى مثل القادسية وما بعدها، وكان له أثر بين في

فتح نهاوند، ولم يكن دوره مجرد دور عسكري، بل كان داعيةً وقائد رأي، يهدي الناس إلى الإسلام.

ومعنى قول النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «**واجعله هاديًا مهديًا**» معنى دقيقٌ بليغٌ؛ ف«**المهدي**» هو الذي اهتدى في نفسه، فاستقام قلبه وعقله وسلوكه على الحق، ولم يعد متخبطًا ولا مترددًا، أما «**الهادي**» فهو الذي صار سبب هداية غيره، يدلهم على الحق بفعله قبل قوله، وبشأته قبل كلامه. فليس كلُّ مهدي هاديًا، فقد يهتدي الإنسان في نفسه ولا يوفِّق لتأثيرٍ في غيره، وليس كلُّ هادٍ مهديًا، فقد يدل غيره بلسانه وهو في نفسه مضطرب، أما جرير فقد جمع الله له الأمرين، فكان مهديًا في باطنه، هاديًا في أثره، مستقيمًا في نفسه، مؤثرًا في غيره.

صحابي آخر يحظى بدعوة الهداية!

وهناك صحابي آخر دعا له النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بنفس هذا الدعاء، فكان أثره باقيًا إلى اليوم، وهو معاوية،

فقال **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: "اللهم اجعله هاديًا مهديًا، واهد به" ^(١).

وإذا نظرنا إلى أثره في الأمة وجدنا معاوية مؤسسًا حقيقياً للدولة الإسلامية بصورتها السياسية المستقرة، فقد أرسى قواعد الحكم، ونظم الدواوين، وأحسن اختيار الولاة في الجملة، وضبط الثغور، وبدأ الأسطول الإسلامي الذي به حُميت سواحل المسلمين، وكان حلمه وعقله السياسي سبباً في تجاوز أزمات لو وقعت في يد غيره لتمزقت بها الأمة. ولهذا قال غير واحد من أهل العلم إن معاوية -رضي الله عنه- كان أعظم ملوك الإسلام حلمًا وسياسة، وأحسنهم تدبيرًا للأمة في زمن التحول، ببركة دعاء النبي **صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** له بالهداية والثبات.

وقف مع هذا الدعاء.

إن هذا الدعاء "اللهم ثبتني، واجعلني هاديًا مهديًا" دعاء يتجاوز الظرف والمهمة، ليصنع إنساناً مستقيم الوجهة ثابت المسار، مهتدياً في نفسه، نافعاً لغيره.

(١) رواه أحمد وغيره، والترمذي وقال: حديث حسن غريب.

ولهذا ينبغي للمؤمن أن يعظم شأن هذا الدعاء، وأن يحفظه، وأن يكرره لنفسه ولأبنائه؛ لأن الهداية أعظم ما يوهب للإنسان، وأجل ما يُسأل الله تعالى، فهي التي تحفظ القلب عند الشبهة، وتثبت القدم عند الفتنة، وتجمع بين سلامة الاعتقاد وحسن العمل. وقد كان الأنبياء، مع عظيم مقامهم، يعظمون من الله الهداية، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ الشعراء: ٧٨، فنسب الهداية إلى الله وحده، إقرارًا بأن العقل وحده لا يكفي، وأن الطريق لا يُسلك إلا بتوفيق رباني.

والهداية في القرآن ليست مجرد معرفة الحق، بل سلوك له، وثبات عليه، ودوام فيه، ولذلك كان دعاء النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** جامعًا مانعًا "اللهم اجعله هاديًا مهديًا، واهد به" إذ جمع بين بين الاستقامة الذاتية والتأثير الإصلاحي. فمن وُهب الهداية ثبت، ومن ثبت نفع.

وهكذا تعلّمنا سيرة جرير أن الدعاء الصادق قد يصنع مستقبلًا كاملاً، وأن أعظم ما نورثه أبناءنا ليس

المال ولا الجاه، بل أن نعلّمهم أن يسألوا الله دائماً
الهداية، وأن يوقنوا أن من قال في كل ركعة: ﴿أَهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الفاتحة: ٦ فلن يضل، ومن ثبتته الله فقدمه
لن تزل، مهما تغيّرت الأزمنة وتقلّبت الأحوال.

وُلِّبَ فِي ٢٨ / ٦ / ١٤٤٧

أ.د. عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد